

ثانيا/ الدبلوماسية في العصر الوسيط

1- الدبلوماسية الأوروبية في العصر الوسيط/ امتاز العصر الأوربي الوسيط عن سابقه القديم بأنه عصر تدهور وتأخر، ولا شك أن نظام الحكم الاقطاعي الأوروبي قد لعب الدور الأكبر في هذا التدهور والتأخر في العصر الوسيط، ومن البديهي أن نظاما كنظام الاقطاع يستند على الحروب والانعزالية والجهل لا يكون فيه أي مكان لتبادل الممثلين وعقد المعاهدات وإجراء المفاوضات، والحقيقة فإن هذا العصر لم يأت بشيء جديد في النظرية الدبلوماسية (القواعد الدبلوماسية)، بل على العكس أرجعها إلى عهد بدائيتها واستخدامها في نطاقها الضيق، وفي فترات قليلة لإنهاء الحرب السجال بين رجال الاقطاع وبين الملوك من جهة، وبين السلطة الدينية والسلطة الزمنية من جهة أخرى.

وفي الوقت الذي كانت حرمة السفراء المتفاوضين مقدسة ومصانة في العصور الذي سبقه نجد أن هذه الحرمة قد انتهكت من قبل حكام وملوك أوروبا أذاك في مناسبات كثيرة، كما لم تستطع المحافظة على المعاهدات والاتفاقيات المبرمة التي كان خرقها يعتبر عملا مخالفا للتعالم المقدسة، وعليه فالدبلوماسية الأوروبية خلال القرون الوسطى كانت تستخدم لغايات مصلحية وتهديدية تسبق شن الغزوات، وجل هدفها تحقيق النصر وفقط.

2- الدبلوماسية العربية الإسلامية/ مارس العرب الدبلوماسية منذ عهد الجاهلية إذ أن وقوع بلادهم في مركز استراتيجي وعلى الطرق الرئيسية، دفعهم إلى الاتصال بالغير وإلى إقامة العلاقات الدبلوماسية، كما أن ممارستهم للتجارة والسفر للتجارة (رحلتي الشتاء والصيف)، جعلهم يحضرون الاجتماعات في الأسواق والأندية وشهود المواسم الثقافية والدينية، فكان نتيجة ذلك قيام علاقات وارتباطات بينهم (القبائل) وبين الأقوام الأخرى، وبالتالي فالدبلوماسية العربية القديمة اقتصرت غالبا على مفاهيم تجارية ودية.

لكن ومع ظهور الاسلام وتوحد العرب في دولة عربية إسلامية، انتظمت الدبلوماسية وأصبحت وسيلة فعالة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية للدولة العربية الإسلامية التي وطد دعائمها الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك أن المفهوم التجاري للدبلوماسية في العصر الجاهلي قد تطور إلى مفهوم سياسي واجتماعي، فالدبلوماسية في عهد النبي وبعده الخلفاء الراشدين أصبحت وسيلة فعالة لنشر تعاليم الإسلام وأداة لتنظيم الاجتماعات والمؤتمرات وعقد المعاهدات لأغراض متعددة (سواء لنشر تعاليم الدين والدفاع عنه أو لأغراض الهدنة وفداء الأسرى وتبادل المعرفة وتحقيق المصالح المشتركة)، كما مارسها الأمويين الذين أقاموا علاقات سلمية مع البيزنطيين، على غرار معاهدة معاوية معهم عام 677 م، ومعاهدة عبد المالك بين مروان عام 689 م، كما نجد معاهدات مع الصليبيين عام 1189 م، ثم أثناء حصار عكا، واتفاقية الهدنة لمدة ثماني سنوات عام 1218م، وغيرها.

لقد أنتج الاجتهاد والممارسة الطويلة للدبلوماسية العربية الإسلامية، -في ظل الفلسفة الحضارية التي كانت تقوم بها الدولة العربية الإسلامية أذاك حتى العصر العباسي- نظاما متقدما في أصول الدبلوماسية وقواعدها، على غرار أصول اختيار السفراء، وإرسال البعثات الدبلوماسية، وقواعد وأصول التشريعات والاستقبالات، وأصول الأمان والحصانات، وإعفاء الدبلوماسيين من الرسوم والجمارك، لدرجة أن أوروبا اقتبست منها الكثير ولا تزال متبعة إلى يومنا الحاضر، وعموما تجلت أبرز سمات الدبلوماسية العربية الإسلامية بما يلي:

- الدعوة السلمية للإسلام من أجل الاستعلام، أو الاستخبار من أجل التهاني.
- تتكون البعثة من السفير وحاشيته.
- يتشكلون السفراء من فئة عمال الدولة ولهم راتب.

- يشترط في اختيار السفراء أن يكونوا من فئة القضاة، والفقهاء، والعلماء.
- يتمتع السفراء والمبعوثين بالحصانة الكاملة طوال مدة إقامتهم في الدولة الإسلامية.
- استقبال السفراء يكون على حدود الدولة الإسلامية، ثم يتم أخذهم إلى العاصمة لاستقبالهم رسمياً.

ثالثاً/ الدبلوماسية في العصر الحديث

1- من القرن 15 إلى مؤتمر فيينا 1815: الدبلوماسية الدائمة والدبلوماسية السرية/ امتازت الدبلوماسية في العصر الحديث عما سبقتها من عصور، بصفة التمثيل الدائم الذي ظهر نتيجة لتغير الدول وحاجاتها وأحوالها، وقد كانت أول ممارسة للتمثيل الدبلوماسي الدائم في إيطاليا أواخر القرن 15، عندما أرسلت جمهورية البندقية أول مبعوث دائم لها، كما سعت إلى وضع بعض القواعد العامة والتعليمات لسفرائها الدائمين في الخارج، وبعدها انتشرت فكرة التمثيل الدائم إلى دويلات إيطاليا ثم كافة أوروبا، فأرسلت إسبانيا أول سفير لها إلى إنكلترا وإمبراطورية النمسا لتبادل التمثيل الدبلوماسي الدائم، وتبادلت كل من فرنسا والبرتغال وإسبانيا سفارات دائمة بينهم، وبتوقيع معاهدة واستغاليا عام 1648 ظهرت الحاجة إلى التمثيل الدبلوماسي الدائم أكثر من أي وقت مضى لتجنب الحروب الطويلة، ومعرفة ما يجري في الدول الأخرى وتزويدها بالمعلومات بصورة مستمرة.

لقد وضعت معاهدة واستغاليا القواعد والأسس لقيام الأمن الجماعي واتخذت العلاقات الدولية بعدها اتجاه التعاون والمشاركة بدلاً من السيطرة والإخضاع، وأهم ما أوجدته المعاهدة ما يأتي:

- اجتماع الدول لأول مرة للتشاور وحل مشاكلها على أساس المصلحة المشتركة.
- إقرار المساواة بين الدول المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية، وإلغاء سلطة البابا الدنيوية.
- إرساء العلاقات بين الدول على أساس ثابت بإقامة سفارات دائمة لديها.
- اعتمدت فكرة التوازن الدولي كأساس للحفاظ على السلم وردع المعتدي.
- التأسيس لفكرة تدوين القواعد القانونية والزاميتها.

وعموماً يمكن القول أن تجربة التمثيل الدبلوماسي الدائم مرت بتطورات عديدة حيث تأثرت بصورة كبيرة بنظم الحكم وتبدلاته ففي القرن 16 حتى القرن 18 كانت نظرية الحكم المطلق هي السائدة، وعليه فلا غرابة أن نجد التمثيل الدبلوماسي آنذاك يتميز بالشخصنة (الممثلين الدبلوماسيين يمثلون شخص الملك وليس الدولة)، وبالنتيجة فمفهوم السفير ذاك الوقت هو الممثل الذي يخدم أراء وأهواء ومصالح الملك هذا من جهة ومن جهة أخرى تميزت الدبلوماسية بالسرية في إجراء المفاوضات واستعمال جميع الحيل كالذب والخداع والنفاق والتجسس (أفكار ميكافيلي الغاية تبرر الوسيلة).

2- من مؤتمر فيينا 1815 حتى الحرب العالمية الأولى: استمرار الدبلوماسية السرية وتغير مفاهيم التمثيل الدبلوماسي/ بالنظر إلى الفوضى التي خلفتها الدبلوماسية السرية واختلاف الدول في طرق التمثيل الدبلوماسي، بدأت الدول تشعر بالحاجة إلى تنظيم قواعد العلاقات الدبلوماسية، وكان أول عمل جدي لذلك اتفاق الدول على عقد مؤتمر فيينا عام 1815 للتباحث في قضايا دولية كثيرة، من أهمها الشؤون الدبلوماسية، حيث أثمر ذلك المؤتمر في التوصل إلى اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1815، والتي تعتبر أول اتفاقية عالمية تضع قواعد للدرجات الدبلوماسية والأسبقيات بين الممثلين، وبعدها جاء مؤتمر Aix-la-Chapelle "أكس لاشابيل" واتفاقيته عام 1818، ليقدم بعض الإضافات في الموضوع نفسه. وبالرغم من بقاء ما يسمى بالدبلوماسية السرية (عقد اتفاقيات ومعاهدات دولية سرية)، إلا أنه حدث تطور فيما يخص التمثيل

الدبلوماسي، حيث أصبح الدبلوماسي يمثل الدولة لا شخص الملك، وقد ترتب ذلك تحول مفهوم السفير من المعنى السابق، إلى كونه مسؤول كبير له خبرة في شؤون البلد المعتمد لديه، وأن خبرته هذه في الميادين المختلفة التي ينقلها إلى دولته تجعل منه ذات تأثير على رسم سياسة خارجية بلده أو تعديلها إلى المسار الذي يخدم مصلحة بلده، طالما أنه ممثل لدولته ويحظى بثقتها. وعموما تميزت الدبلوماسية في هذا الوقت بما يلي:

- بداية تقنين قواعد الدبلوماسية.
- بدأت الدبلوماسية تأخذ طابع المهنة والاحتراف.
- أصبح الدبلوماسي يمثل دولته وليس الحاكم.
- بدأ أعضاء البعثة يتمتعون بنوع من الاستقلالية وبعض الحصانات والامتيازات.

3- من الحرب العالمية الاولى حتى الوقت الحاضر: الدبلوماسية العلنية، دبلوماسية القمة، الدبلوماسية المتخصصة/ لقد اقترن دخول القرن 20 بعوامل وظروف عامة وخاصة أثرت تأثيرا كبيرا على الدبلوماسية وأهم هذه العوامل نمو روح المصالح المشتركة للأمم مقابل المصالح القومية المطلقة، وازدياد التقدير لأهمية الرأي العام، وازدياد وتوسع انواع ووسائل الاتصال والتواصل زيادة سريعة، فقد أدى الشعور الجديد بين الامم الذي يقر مبدأ وجود أمم متنوعة لكل منها مصالحه وأن تحقيق المصالح الخاصة مرتبط بتحقيق مصلحة الآخرين أن أوجد في النظرية الدبلوماسية تطورا جديدا قوامه احترام الآخرين، كما أن ازدياد التقدير لأهمية الرأي العام كان من أهم نتائجه خضوع الحكومة لرقابة الشعب، وبعبارة أدق رقابة ومصادقة البرلمان الممثل للشعب على المعاهدات والاتفاقيات التي تبرمها حكومته.

كما أن تحسن وسائل المواصلات والتواصل كان له تأثير كبير على الأساليب الدبلوماسية، فالتلغراف والفاكس والهاتف والطائرة كان له الأثر الكبير في القضاء على الدبلوماسية القديمة (السرية والبطيئة)، فأصبح بمقدور السفراء نقل المعلومات بسرعة، كما ظهر ما يسمى بالسفراء المتجولين لهم مهام معينة ويعودوا بمعلومات سريعة مباشرة، وهو ما قلص نسبيا من مهام وصلاحيات السفراء المعتمدين، كما كان من نتائج هذا التواصل المتسارع وزيادة الاحتكاك بين الأمم، أن حولت اتجاه الدبلوماسية من السرية إلى الدبلوماسية العلنية، وهو ما يعني ضرورة إعلان نصوص المعاهدات والاتفاقيات حتى تصبح لها قوة إلزامية، مثلما نصت عليه عصبة الأمم في مادتها 18 باعتبار الدبلوماسية السرية كانت سببا من أسباب الحرب العالمية الاولى، وبعدها منظمة الأمم المتحدة في مادتها 102، ومن أهم التغيرات هو نقل الدبلوماسية إلى ما يسمى دبلوماسية القمة حيث أصبح بمقدور رؤساء الدول والحكومات التنقل بأنفسهم على رأس وفود لإجراء المفاوضات، وأن المفاوضات لا تقوم بها وزارة الخارجية وحدها أو السفراء وحدهم فهناك متخصصون من مختلف القطاعات المعنية بالمعاهدة.